من آداب الأدب الغربي

من روائع « شلى »

للاستاذ ابراهيم سكيك

عرف « شيلى » فى الأدب الانكليزى بميله للطبيعة ووصف مظاهرها وصفاً خيالياً رائعاً يرقة وعذوبة ، وهو يعالج ما يصوره الخيال ويبتدعه العقل بدقة تجعله يبدو مجسماً حقيقياً ، وهو من هذه الناحية يخالف زميله الشاعر « كيتس » الذى يجعل من الأشياء المحسوسة الجميلة أطيافاً رائعة تسمو إلى الخيال .

نشأ شلى فى بيئة ارستقراطية غنية ، لكنه نبذ مظاهر الغنى وانهمك فى دراسة الأدب وقرض الشعر منذ كان فى جامعة إكسفورد ، ولم يعمر طويلاً حتى ينتج ديواناً كبيراً لكنه رغم

إن أى فحص جدى لهذا الموضوع سوف يريك بوضوح حيائنا الشخصية وأوطاننا . وإنه من السهل أن نسلم أبناءنا وبناتنا معدات العالم وليس بهذه البساطة نستطيع أن نسلمهم ثقافة روحية غنية وميراث المعتقدات والمبادىء الأخلاقية العظيم الذى بدونه لايكون شىء خيراً ولا شىء يتقدم .

وفى غالبية أعمالنا لا نعمل صالحا ، فإن مدارسنا وكنائسنا وبيوتنا وعمل الانسان كله فى الحياة العامة يثبت أنه غير ملائم للعمل أو بالأحرى معادله ، وإن نوع العالم الذى سوف يعيش فيه أحفادنا سوف يعتمد على ميزة روحية تسير كل القوى التى يديرها ؛ قوى ضخمة حتى أننا الآن لا نقدر على تصورها ، وإن هؤلاء الذين يعلمون ما يجرى داخل بعض معاملنا ليسوا فخورين بهذا العمل ولكنهم مجدون ، فهم يقولون أن القوى الجديدة التى سوف تكون فى متناول الانسان مروعة . وإنما الشخصية التى علينا أن نعتبرها أول ما نعتبر الآن — هى الشخصية التى تحفظها والمبادىء التى تسيرها والأغراض التى تكسبها بهاء وتعين لها غرضا .

ترجمة

عبد الجليل السيد حسنه

ذلك كثير الإنتاج بالنسبة إلى سنى حياته التى انتهت وهو فى ريعان الشباب عندما غرق على ساحل لجهورن بإيطاليا .

وكانت أشعاره لا تثير اهتمام الأدباء والنقاد فى زمانه كما أنها لم تترجم إلى اللغات الأوربية كأشعار « بايرن » لصعوبة ترجمتها لأن الأفكار لا يمكن نزعها من الألفاظ بسهولة . ثم بدأ الذوق الانكليزى يستسيغ قصائده ويعجب بها لما تحويه من خيال رائع وأفكار فلسفية جديدة حتى غدا بين الشعراء فى المنزلة الثانية بعد شكسبير وملتون ، وله قصائد طويلة وروايات تراجيدية لكنه نال شهرته بقصائده القصيرة الرائعة التى سأقتطف منها نبذاً يستدل منها القارىء على عبقرية هذا الشاعر الموهوب .

وأشهر قصائده على الأطلاق مرثية « ادونيز » التى تعد من اشهر المراثى فى جميع اللغات ، كتبها عندما جاءه نعى صديقه وزميله « كيتس » وفيها يقول : —

« صه ، صه : ليس هو بميت ولا بنائم ، وإنما صحا من حلم الحياة المريع بينما نحن التائهون فى أحلام عاصفة ، نجاهد ونكافح أطيافاً لا طائل من ورائها ، وفى غيبوبة جنونية نطعن بخنجر أرواحنا معتقدات لا وجود لها ، ثم نضمحل كما تضمحل الجثث فى القبور بعد أن يزعزع كياننا الحزن والخوف فيعملان على تحطيمنا يوماً بعد يوم .

وتنخر الآمال الباردة هيكلنا الطينى كما تنخر الديدان جثث الأموات .

لقد حلق فى فضاء لا يصل اليه ظلام الليل السادل علينا

وهناك : الحسد والحقد والبغض والألم وعدم الاستقرار الذى نسميه خطأ بالسرور لا نجد لها سبيلا فى دنياه فلا تصيبه ولا تشقيه

وهو هناك فى مأمن من أن يصاب بعدوى الشرور الدنيوية .

ولن يندب بعد اليوم فؤاداً التاع أو رأساً اشتعل شيباً .

إنه يعيش ويصحو ، والذى تلاشى هو (الموت) وليس (هو)

إذاً لا تندبوا أدونيز : لا تندبه أيها الفجر ، أضف جلالك وعظمتك على قطرات الندى ، لأن الروح التى تندبها لم تفارقك .

وأنت أيتها الغابات والكهوف كفى من العويل .

وكفى أنت أيتها الأزهار والينابيع ، وأنت أيها الهواء الذى القيت بوشاحك على الأرض كما تلقى النادبة خمارها الأسود على

وجهها ، إكشف الآن هذا القناع عن العالم ليتمتع برؤية النجوم الضاحكة .

لقد اتحد الآن مع الطبيعة ليكونا عنصراً واحداً : فصوته يسمع فى جميع أنغامها المنسجمة : فى أنين الرعد وترتيل الطيور ، ونحن نشعر بوجوده فى الظلام والضياء وبين الأعشاب والصخور يفشر نفسه حيثما تتحرك القوة الإلهية التى أخذته إلى جوارها . تلك القوة التى تعالج أمور العالم بمحبة وحكمة .

إنه كقبة الفلك العظيمة الشاهقة علواً وارتفاعاً ، وكالشمس يتطرق لها الكسوف لكنها لا تتلاشى ، وكالنجوم تسير إلى مستقر لها لا تتعداه ، والموت ضبابة كثيفة تحجز نور الشمس ولكن لا تطمسه أبدا .

* * *

وفى نهاية هذه القصيدة يشعر بدنو أجله بدافع غريزى عجيب ويدعو الموت الذى لم يمهله أكثر من عام بعد ذلك فيقول :

إيه ياقلبى ! مالى أراك متثاقلا متوانياً :
لقد ذهبت كل آمالك وخلفتك وحيداً
فلنغادر هذا العالم إذاً —
هاهو وجه السماء الرقيق يبتسم ، والريح الهادى يهمس ؛
إنه نداء من « أدونيز » فلأسرع اليه
إذ لن تفرق الحياة بين من يمكن أن يجمعهما الموت.

* * *

وفى الدرجة الثانية قصيدته الرائعة التى يناجى فيها الريح الغربى وهى روح الكرن التى يستطرد فى مناجاتها حتى يدمج نفسه بها ، وندع للقارىء الحكم على متانتها وبراعة تخيلاتها ومعانيها المبتكرة بعد أن ينعم النظر فيها !

أيتها الريح الغربية الهائجة ، أنت زفير الخريف العظيم ، أنت الذى تنساق أمامك أوراق الشجر دون أن تراك فتفرين بين يديك كما تفر الأشباح من ساحر جبار . ثم تفر تلك الأوراق الصفراء والسوداء والشاحبة والحمراء بجماهيرها الغفيرة.

أنت أيها الريح تشيع البذور التى تتطاير كأنها مجنحة إلى مرقدها الشتوى المظلم حيث تظل راقدة كما ترقد الجثة فى قبرها وتظل كذلك حتى تهب شقيقتك الزرقاء وهى ريح الربيع التى تنفخ فى البوق لتوقظ الأرض النائمة وتسوق الأزهار اليانعة كما يسوق الراعى قطعانه من الحظيرة إلى الفضاء فتملأ الربى والوهاد.

فأيتها الروح الهائجة المتحركة فى كل مكان ، أنت تدمرين الحياة وتصونينها فى الوقت ذاته فاسمعى :

تتساقط على غديرك الغيوم المنحلة كما تتساقط أوراق الشجر فكأنك تهزينها من جذوع السماء وأغصان المحيط ، وعلى سطح أمواجك الزرقاء الهوائية تتدلى خصل من العواصف المضطربة .

أنت تنشدين ترتيل جناز السنة المنتهية التى ستتخذ من قبة هذه الليلة السادرة الفسيحة مزاراً ومقاماً . وسينفجر من بخار أنفاسك مطر وبرق ورعد

أنت التى أيقظت البحر الأبيض المتوسط من نومه بعد أن كان مستغرقاً فى أحلام الصيف العذبة وهو نائم على أنغام أنهاره البلورية ، فتقطعين عليه أحلامه وتشوهين تصوراته . وعندما تمرين بالاقيانوس الأطلنطى تشقين فيه أخاديد عميقة بعد ما تثيرينه من أمواج عاتية شاهقة ويشعر بهزاتك كل كائن حتى ذرات النبات الراسبة فى قاع المحيط ، فتشيب فزعاً وتهتز اضطرابا .

ليتنى أيها الريح ورقة ميتة تحملينها .

وليتنى سحابة سريعة أطير معك ، وليتنى موجة ألهث من شدتك وأشاطرك قوة اندفاعك ولو كنت أقل حرية منك ، أنت التى لا يسيطر عليك أحد .

بل ليتنى ما زلت فى عهد الصبا زميلا له فى تجوالك فى أفق السماء .

أتوسل إليك الآن أن ترفعينى كما ترفعين الموجة أو الورقة أو السحابة لأنى ملقى على أشواك الحياة ودمى ينزف بعد أن كبلتنى ساعات الزمن الثقيلة وحنت ظهرى بعد أن كنت مثلك سرعة وكبرياء !

اجعلينى قيثارتك كما اتخذت من الغابة قيثارة تعزفين عليها أعذب الألحان .

فماذا يهمنى لو سقطت أوراق بعد أن تأخذى أنغامى وتنشريها فى الكون كما تنشرين البذور لتحيا من جديد . هكذا أريد منك أن تنشرى كلماتى وأشعارى بعد وفاتى بين جميع البشر كما تنشرين رماد الموقد بعد أن تخبو ناره . ويا ريح الخريف : إذا كان الشتاء قادماً فهل يكون الربيع بعيداً ؟

* * *

وهناك مقطوعات أخرى كثيرة يجد فيها القارىء متعة ولذة ، وقد رغبت فى تأجيل ترجمتها لعدد قادم لئلا أطيل كثيراً فى هذا المقام.

ابراهيم سكيك